

جدلية الأنا والآخر في السرد الجزائري المعاصر - دراسة مقارنة في ضوء التحولات الاجتماعية والثقافية

The dialectic of self and other in contemporary Algerian narrative - a comparative study in light of social and cultural transformations

إبراهيم مبروك^{1*}، إسماعيل زغودة²، توزان عبد القادر³

¹ جامعة المدينة العالمية الماليزيا، alge38950@hotmail.com

² جامعة حسيبة بن بوعللي الشلف، i.zeghouda@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2025-02-27 تاريخ القبول: 2022-05-19 تاريخ النشر: 2025-05-25

ملخص البحث

استهدف البحث استكشاف كيفية تجسيد الشخصيات والأحداث التي تعكس الصراع بين الذات والآخر في النصوص الأدبية الجزائرية، ودراسة الأفكار والمعتقدات التي يعبر عنها الكاتب من خلال نصوصه السردية، مع التركيز على كيفية تأثير هذه الرؤية على تصوير العلاقة بين الأنا والآخر، علاوة على تحليل الأساليب الأدبية والتقنيات السردية التي يعتمد عليها الكتاب لتقديم هذا الصراع بطرق فنية ودرامية. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف استند البحث إلى المنهج الوصفي التحليلي بوصفه إطاراً منهجياً أساسياً، يهدف هذا المنهج إلى تقديم وصف دقيق للظواهر المدروسة وتحليلها بشكل منهجي للكشف عن الأنماط والعلاقات الداخلية التي تسهم في تشكيل النصوص السردية وتعميق فهمنا للجدلية التي يتناولها البحث. وقد انبثقت مشكلة البحث من تعدد الرؤى الفكرية والأيدولوجية التي يتبناها الكتاب، بالإضافة إلى التنوع الكبير في المناهج الفنية التي يعتمدونها لتجسيد هذه الرؤى، وتتأثر هذه الظاهرة بالتحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها الجزائر، التي انعكست بعمق على الإنتاج الأدبي.

وقد توصل البحث إلى عدة نتائج أهمها: أن هذه الروايات طرحت قضايا عديدة أبرزها جدلية الصراع بين الأنا والآخر، وهوية الأنا في حدود العدا، أو الرفض، أو القبول بتحفظ، أو الذوبان في هوية الآخر، كما

* المؤلف المرسل:

أوصى البحث بإعادة قراءة هذه النصوص السردية الروائية في ظل نظريات التلقي الحديث للوصول إلى الفجوة التي بين الذات المبعدة والذات المتلقية واستخراج المعنى المختبئ تحت البنية السطحية الظاهرة للروايات. الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية المعاصرة- السرد الجزائري المعاصر- الأنا- الآخر- التحولات الاجتماعية والثقافية.

Abstract

This study aimed to explore how characters and events that reflect the conflict between the self and the other are embodied in Algerian literary texts. It also examined the ideas and beliefs expressed by the author through their narrative texts, focusing on how these perspectives influence the portrayal of the relationship between the self and the other. Additionally, the research analyzed the literary styles and narrative techniques employed by writers to present this conflict in artistic and dramatic ways.

To achieve these objectives, the study relied on the descriptive-analytical method as its primary methodological framework. This approach aims to provide an accurate description of the phenomena under study and systematically analyze them to uncover the patterns and internal relationships that contribute to the formation of narrative texts and deepen our understanding of the dialectic addressed in the research.

The research problem stemmed from the diversity of intellectual and ideological perspectives adopted by writers, as well as the wide range of artistic methods they use to represent these views. This phenomenon is influenced by the social and cultural transformations that Algeria has undergone, which have profoundly impacted literary production.

The research concluded with several key findings, the most significant of which is that these novels present numerous issues, most notably the dialectic of the conflict between the self and the other. This includes the identity of the self in terms of hostility, rejection, conditional acceptance, or assimilation into the identity of the other. The study recommended re-reading these narrative texts in light of modern reception theories to bridge the gap between the alienated self and the receptive self and to extract the hidden meanings beneath the surface structure of the novels.

Keywords: Contemporary Algerian Novel - Contemporary Algerian Narrative - Self - Other - Social and Cultural Transformations.

المقدمة:

تُعَدُّ جدلية الأنا والآخر واحدة من أبرز القضايا التي شغلت الفكر الإنساني على مر العصور؛ إذ يتجلى هذا الصراع في الكثير من السياقات الاجتماعية والثقافية؛ وفي السياق الجزائري المعاصر اكتسبت هذه الجدلية أبعادًا جديدة نتيجة للتغيرات الجذرية التي شهدتها المجتمع الجزائري في العقود الأخيرة، وقد تأثرت هذه التغيرات بالتحولات الاجتماعية والسياسية الكبرى؛ بدءًا من الاستعمار الفرنسي وصولًا إلى الاستقلال وما تبعه من أزمت سياسية وثقافية واجتماعية، ويعكس السرد الجزائري المعاصر هذا الصراع من خلال تصوير العلاقة المتشابكة بين الأنا والآخر، التي تُبرز التوترات بين الهوية الذاتية والهوية الجماعية، وبين القيم التقليدية والحديثة، وبين التراث المحلي والتأثيرات الخارجية، وفي هذا السياق يصبح السرد وسيلة فعالة لفهم التعقيدات الثقافية والاجتماعية التي يمر بها المجتمع الجزائري؛ إذ يُمكن من تحليل كيفية تفاعل الأفراد والجماعات مع التغيرات المحيطة بهم.

لقد نشأت الرواية الجزائرية المعاصرة متأثرة بالواقع الذي يمر به الوطن، وكانت فترة الاستعمار مادة خصبة استقى منها الأدباء رواياتهم التي صُغت بصبغة ثورية وتأثرت بالأيديولوجيا الاشتراكية، ثم تطورت الرواية الجزائرية لتصبح أكثر انفتاحًا وتساوقًا مع التقنيات السردية الحديثة للرواية العالمية، وتنوعت السرديات الروائية باللغة العربية الأم، واللغة الفرنسية لغة المستعمر، لكنها لم تتأثر بالرؤية الاستعمارية واستخدمت لغته للتأثير فيه والتعبير عن الصراعات التي يعيشها الوطن؛ الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، وأبرز ما طرحته هذه الروايات هي الجدلية القائمة بين الأنا والآخر، هذه الصراعات التي سلطت الضوء على الأوضاع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية للشعب الجزائري، ومن هنا جاء عنوان هذا البحث: (جدلية الأنا والآخر في السرد الجزائري المعاصر - دراسة مقارنة في ضوء التحولات الاجتماعية والثقافية)، وقد حصرنا البحث في ثلاث روايات لثلاثة أدباء مثّلت كل رواية مرحلة تاريخية زمنية فارقة في مراحل تطور الوطن، وهم: الطاهر وطار وروايته (اللاز)، ومحمد ديب وروايته (هايل)، وعبد الجليل متراض وروايته (لا أحب الشمس في باريس).

أهداف البحث:

هناك عدة أهداف يسعى البحث إلى تحقيقها، يمكن بيانها على النحو الآتي:

- استكشاف كيفية تجسيد الشخصيات والأحداث التي تعكس الصراع بين الذات والآخر في النصوص الأدبية الجزائرية.
- دراسة الأفكار والمعتقدات التي يعبر عنها الكاتب من خلال نصوصه السردية، مع التركيز على كيفية تأثير هذه الرؤية على تصوير العلاقة بين الأنا والآخر.
- تحليل الأساليب الأدبية والتقنيات السردية التي يعتمد عليها الكتاب لتقديم هذا الصراع بطرق فنية ودرامية.
- دراسة كيفية انعكاس التغيرات الاجتماعية والثقافية في الجزائر على النصوص الروائية، وتأثيرها في تصوير العلاقة بين الأنا والآخر.
- تحليل تأثير الأدب على تشكيل وعي الأفراد والمجتمع بهويتهم الذاتية والجماعية في ظل التحولات الاجتماعية والثقافية.

مشكلة البحث:

في سياق السرد الجزائري المعاصر تتجلى إشكالية واضحة تتمثل في تعدد الرؤى الفكرية والأيدولوجية التي يتبناها الكتاب، بالإضافة إلى التنوع الكبير في المناهج الفنية التي يعتمدونها لتجسيد هذه الرؤى، وتتأثر هذه الظاهرة بالتحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها الجزائر، التي انعكست بعمق على الإنتاج الأدبي؛ ما أضفى على المشهد السردى ثراءً وتعقيداً يستدعي البحث والتحليل، وتتمثل المشكلة في أن الكتاب لا يتناولون جدلية الأنا والآخر من منظور موحد أو من خلال إطار فكري أو أسلوبي واحد، بل يتباينون في مقارباتهم الفكرية والمنهجية، ويعبر كل كاتب عن رؤيته للذات والآخر وفقاً لخلفيته الثقافية والأيدولوجية، وتجاربه الشخصية، ومدى تأثره بالسياقات الاجتماعية والسياسية المحيطة به، هذا التباين يخلق لوحة فسيفسائية من التصورات المختلفة، تتراوح بين الانغلاق على الذات والنزعة القومية من جهة، والانفتاح على الآخر والتفاعل مع الثقافات الأجنبية من جهة أخرى، ومن الناحية الفنية، تتنوع الأساليب السردية بين التقليدية والحداثيّة وما بعد الحداثيّة، ويستخدم بعض الكتاب التقنيات السردية الكلاسيكية؛ مثل: السرد الخطي والوصف التفصيلي، في حين يلجأ آخرون إلى التجريب في البناء الروائي؛ ومن ثم تسعى

الدراسة إلى توضيح مدى تأثير هذا التعدد على فهم القارئ للعلاقة بين الأنا والآخر، وكيف يسهم كل منهج فني في تقديم رؤية فريدة لهذه الجدلية. كما تهدف إلى تسليط الضوء على الأبعاد الاجتماعية والثقافية التي تؤثر في تشكيل هذه الرؤى المتعددة، وتحليل كيفية انعكاسها على الهوية الجماعية والفردية في الأدب الجزائري.

منهج البحث:

تم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي بوصفه إطاراً منهجياً أساسياً، يهدف هذا المنهج إلى تقديم وصف دقيق للظواهر المدروسة وتحليلها بشكل منهجي للكشف عن الأنماط والعلاقات الداخلية التي تسهم في تشكيل النصوص السردية وتعميق فهمنا للجدلية التي يتناولها البحث.

تمهيد:

ظهرت ثنائية الأنا والآخر في السرد الروائي الجزائري مع فترة الغزو العسكري للجزائر ومقاومته، فالآخر منذ هذا الوقت يمثل (المستعمر) أو المحتل، المختلف مع الأنا ثقافياً، ودينياً، وأيديولوجياً، فجاءت الروايات الجزائرية معبرة عن هذا الواقع الزمني والتاريخي، فأحدثت استجابة لدى المتلقي الجزائري، والعربي بصفة عامة، وكان الاستعمار يعمد إلى إبعاد الشعوب المستعمرة عن ماضيها، فحاول طمس الهوية بدءاً بفرض لغته ومحو لغة الآخر، ومن خلال لغته هو/الآخر تنتقل الثقافة والفكر، ليزوب المجتمع مع العادات الاجتماعية للمحتل أملاً في تناسي عاداته وقيمه المجتمعية الأصيلة، فنشأ على أثر ذلك الأنا المضاد له النائر عليه، وقاوم ذلك بكل السبل حتى انتصر عليه وأزاله عسكرياً من البلاد، وكانت هذه الفترة مادة خصبة للروائيين يستقون من معينها شخصيات جسدها رمزيات للمقاومة والصمود.

وكانت نظرة الأنا للآخر في الروايات السردية نظرة عدائية، وبعد فترة التحرير اختلفت نظرة الأنا للآخر، وصار مفهوم الآخر غير محصور في المستعمر فقط، بل صار له دوال متعددة، ولا شك أن تغير هذه النظرة في السرد الروائي راجع إلى تغير الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية من ناحية، والتغير الأيديولوجي للكتّاب الذين يصورون الآخر في كتاباتهم، فشخصيات العمل الروائي تعكس من ورائها شخصية (أنا) الكاتب المختبئة في الخلف، ولذا يجدر بنا أولاً أن نقف على مفهوم الأنا والآخر.

مفهوم الأنا والآخر:

تتلازم ثنائية الأنا والآخر في مفهومها، فكلما وضح مفهوم الأنا وارتسمت معالمه؛ كلما كان الآخر واضحًا، وقد تعددت مفاهيم الآخر لتتداخل مع العلوم الأخرى الفلسفية والنفسية، فالجذور البعيدة عند فلاسفة اليونان تبرز لنا جدلية الأنا والآخر من خلال رأي أرسطو الذي يرى أن الشيء إما أن يكون هو هو، وإما أن يكون مخالفًا لذلك، فهو بالنسبة إلى كينونته هو هو، وبالقياس إلى الغير مخالف له، فكل ذات ذاتٌ لنفسها، وهي آخر لغيرها⁽¹⁾.

وتتغير النظرة الفلسفية عن النظرة السيكولوجية للأنا عند (وليام جيمس)، ومرورًا بـ(جيمس مارك بالدوين)، و(جورج هربت ميد)، وغيرهم إلى الآن، فقد اعتمدت النظرة للأنا والآخر على عاملين رئيسين هما: العامل المعرفي، والعامل التقييمي، وهما نتاج خبرة الأنا مع نفسها أو تعاملها مع الآخر⁽²⁾، ومن هنا اختلفت التعريفات للأنا والآخر.

أما الأنا فتعرف بأنه: "ضمير متكلم قائم بذاته، لا ينازعه أو يشاركه في ذاتيته أحد آخر"⁽³⁾، فالأنا كما هو الذات المستقلة، هي مجموع مكون من عناصر بنائية تتشكل عبر البيئة الاجتماعية، وما تغرسه في الذات من قيم ثقافية، ودينية، وسلوكية، إضافة إلى ما يساعد على فهمها من طموحات وما تتمتع به من قدرات، وهذه المكتسبات يمكن لها أن تتغير مع اختلاف البيئة، فهي ليست ثابتة، وعليه فإن المواقف التي تتخذها الأنا ضد الآخر تختلف لاختلاف هذه العوامل؛ من العداء، أو التسامح والقبول، أو الرفض.

ولا يختلف تعريف الآخر عن تعريف الأنا كثيرًا، فالآخر: "عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ما -أو جماعة ما- إلى غيره"⁽⁴⁾.

الآخر في السرد الجزائري المعاصر:

يرتبط مفهوم السرد بمفهوم الحكى عند (جيرار جينت)، و(تودوروف) إذ يقوم السرد عندهم على أساس اتخاذ الصيغة معيارًا، بينما يرتبط عند (كولاس) بالشكل التعبيري⁽⁵⁾، ويدل مصطلح (السرد) في إحدى دلالاته اللغوية في المعاجم العربية؛ على التتابع، ففي (اللسان): "سرد الحديث يسرده سرّدًا: إذا تابعه. وفلان يسرد الحديث سرّدًا إذا كان جيد السياق له. وفي صفة كلامه -صلى الله عليه وسلم-: لم يكن يسرد الحديث سرّدًا، أي: يتابعه ويستعجل فيه"⁽⁶⁾.

أما (السرد) في المصطلح النقدي فيمكننا تبسيطه بأنه: "نقل الحادثة من الصورة الواقعة إلى الصورة اللغوية"⁽⁷⁾.

والتميز نظرياً بين السرد الروائي بالنظر إلى كونه حكاية وبين الأنواع الخطابية الأخرى أفاض فيه النقاد، وقد أضاف هذا المصطلح الكثير من الإثراءات في حقل الدراسات النقدية لكونه جامعاً للعديد من العلوم والمعارف الثقافية، وما يهمنا هنا هو السرد الروائي الجزائري، الذي ظهر بشكل ناضج فنياً ولافتاً لنظر النقاد؛ في فترة السبعينيات من القرن الماضي، إذ ظهرت الرواية المعبرة عن مرحلة ما قبل الاستقلال، تلاها مرحلة ما بعد استقلال الجزائر والتي يشار إليها تحت مصطلح (الكولونيالية) وما بعد الكولونيالية، فقد ظهر في هذه الفترة عدة أدباء أخذوا زمام القيادة للفن الروائي الجزائري من أمثال: محمد هدوكة، والطاهر وطار، ومحمد عرعار، وغيرهم من الروّاد الأوائل ومن تلاهم من أجيال الأدباء البارزين الذين عبّروا عن تلك الفترة التي اتسمت بالطرح السياسي الثوري الذي كان يعيش فيه المجتمع، وعبرت عن التفاصيل الحياتية للبيئة الجزائرية في تلك الفترة، ثم تلاها أدباء يعبرون عن مرحلة ما بعد الاستقلال وضياح الهوية الوطنية وانعتاق الأنا من التبعية السياسية إلى التبعية الثقافية والاقتصادية المؤثرة في الأنا الفردي والجمعي.

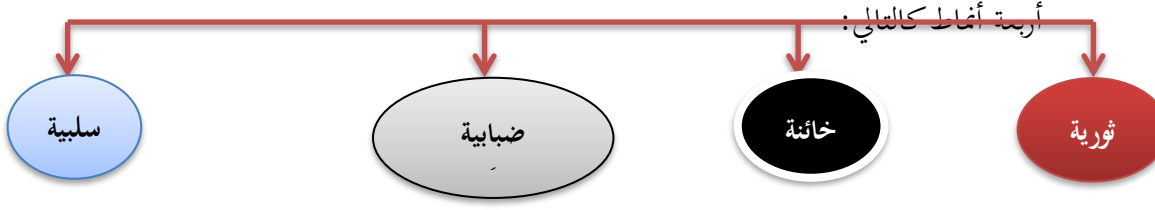
فالطاهر وطار بتأثير الفكر الاشتراكي ونزعتة الواقعية يرى الأنا مغلوباً على أمره، والآخر استعماري تدميري، بينما محمد ديب متأثراً بثقافته الغربية يرى أن الآخر متطور حضارياً بينما الأنا في تحبط بين القديم والتطور، أما عبد الجليل مرتاض فيعرض الصراع الحضاري بين الأنا والآخر من خلال شخصياته الروائية، والمقارن يبرز هذه المفارقات بين الأنا والآخر من خلال النص السردى واستنطاق النص ذاته بعيداً عن صوت الراوي أو التبيين، والسرد الذي هو شكل الحكاية يعتمد على اختيار الكاتب للوقائع التي لا ترتبط بالتسلسل الزمني للأحداث، وإنما هو تصور فني من بؤرة معينة لحقبة زمنية يصوغها في شكل بنية فنية تؤثر في المتلقي.

تمثلات الرؤية الأيديولوجية للأنا والآخر في (اللاز):

1- الأنا الثورية: تصور رواية (اللاز) للطاهر وطار مرحلة ما قبل ثورة التحرير الجزائرية،

ولذا فإنها تقدم الرؤية النضالية للشعب في ذلك الوقت، وبرع في تسليط الضوء على الأوضاع

الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية السائدة، وقد صور شخصيات قصته المعبرة عن (الأنا) على



فشخصية (اللاز) بطل القصة تمثل العديد من طوائف الشعب، غير أن الكاتب قدمها بصورة منقّرة في بعض الجوانب، فهو لقيط لا يعرف أباه، يعاقر الخمر، ويشرب الحشيش، ويلعب القمار، ويتكرر دخوله السجن مرات عديدة، ولكنه على الجانب الإيجابي صلب عنيد لا ينهزم في معركة يثير التهديد للقرية كلها، ساهمت ظروف النشأة في تكوين جُلده وصبره وقوة احتماله البدنية والمعنوية، مما أهّله أن يتحمل المسؤولية وينضم للثوار، ويهرّب المجاهدين من سجون الفرنسيين، سهّل له ذلك صداقته للضابط الفرنسي الكبير، كما أنه يتحمل العذاب في سجن الضابط، وأخيراً يتم تهريبه وينضم للمجاهدين. والدافع لانضمامه للثوار هو البعد النفسي للشخصية وما عاناه من أذى وجرح عميق لآثامه بأنه لقيط لا تعرّف أمه من أبوه، فيقول لزيدان حين يقابله في القطار:

"هل تعرف الفلاقة؟

-ولماذا هذا السؤال؟

-حتى أنت لا تتق بي؟ ...

-إذا كنت تعرفهم اسألهم هل يريدون موت القبطان؟ وهل يقبلونني معهم إذا ما قتلته؟

-ماذا تقول يا اللاز؟

-أريد أن أتخلص من ولد مريانة" (8).

فالشخصية قدمها الكاتب على أنها نمذجة للأنا الشعبي، ولطبقة اجتماعية كادحة عاشت قبل الثورة تحت وطأة الاحتلال، تعاني من الفساد، والأعباء الاقتصادية الخانقة، ومن خلال السرد نتعرف على أبعاد هذه الشخصية؛ الجسدي، والاجتماعي، والنفسي، ولولا تقديم هذه الشخصية في صورة اللقيط لكانت من أفضل الشخصيات الممنذجة لتصوير الشعب مع عدم امتلاكها للوعي

الشمولي للواقع، لكن الكاتب متأثرًا بالرؤية الاشتراكية التي رفعت من شأن البسطاء في مواجهة الاحتلال والسلطة أثر اختيارها من هذه الطبقة.

وإن كنت أرى أن البطل الحقيقي للقصة هو (زيدان) فهو الممثل للأيدولوجية الاشتراكية الحقيقية للكاتب والوعي الثوري والثقافي، فالكاتب يعلن أن: "الشيوعي، والشمعة لا دور لهما إلا الذوبان، الانتحاء، والذوبان"⁽⁹⁾، وزيدان هو من يجند الثوار، ويقود الكتائب، ويتقدمهم إلى المعارك، ويزن الرجال بميزان صحيح، ويحلم بوطن جديد يقول: "سابقون لزمنا.. تفصلنا عنه مسافات، مسافة جيلين أو ثلاثة على الأقل.. قرن وقرابة النصف من الاستعمار المباشر.. ومجتمع أشد تخلفًا من مجتمعات القرون الوسطى.. مجتمع تطمسه البداوة.. مجتمع رعوي ضارب في التأخر والانغلاق. هذا الوليد، آه. الجزائر، هذا الوليد لا يزال في المهد"⁽¹⁰⁾، وتختلط شخصيته بالشخصية الصوفية حين يحلم بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ورحلته إلى غار حراء.

ويقدم الكاتب البعد الاجتماعي للأنا/الجمعية في الوصف للمكان الدال على التخلف العمراني يقول: "القرية كما خلفها الرومان تتأمل الجبال في كآبة ما تزال، والظلال تتطاول كلما انحنت الشمس إجهادًا ووهنًا"⁽¹¹⁾، فهذا الوصف يدل على عراقية القرية فهي من عهد الرومان، لكنه يدل من ناحية أخرى على تخلفها الحضاري عن العمران الحديث الذي تطور مع الزمن، فهو انعكاس لما يعيش أهلها فيه من رجعية وتخلف عن حضارة الدول المجاورة: «فهم ككل ماضي يسيرون إلى الخلف، ونحن ككل حاضر نسير إلى الأمام»⁽¹²⁾، كما يشير إلى الآلات الزراعية المستخدمة (المحراث) في مقارنة مع الآلات الزراعية الحديثة.

أما بقية تمثيلات الشخصيات الأخرى كشخصية (بعطوش) فهي شخصية خائنة ترشد عن المجاهدين، وينبهر بحضارة الآخر، ويفرح بترقيته لرتبة (السارجان) ويرتكب أفظع الجرائم في حق إخوانه إرضاء للآخر، غير أنه يعود في النهاية وينحاز لصفوف الثوار حين قتل القبطان/الضابط الكبير. وأما الشخصيات السلبية فتمثلها شخصية الشيخ الربيعي وأمثاله ممن يتعايشون مع الواقع ولا يحاولون تغييره.

2- الآخر المستعمر: يختزل الكاتب الآخر في صورة الضابط الفرنسي الكبير، خريج كلية الآداب، وعن طريق الخبرة الحربية السابقة يصل إلى منصبه، فيصوره الكاتب بملامح أنثوية خالية من

الرجولة، ويضيف إليه الشذوذ الذي يمارسه مع اللاز ويرر له فعلته "إنني مريض كما أفهمتك قبلاً.. لست محتئناً. لقد أوجب الطبيب.. إنه شيء ضروري لحياقي.. إنه علاج لا غير" (13)، ومن خلال السرد نجد ازدواج المعايير عند الآخر فحين يهرب اللاز من سجنه يقول: "القذر، لو كان واعياً للبت مع إخوانه، الانتهازي القذر، لا يدرك تمامًا أنه ليس فرنسيًا، ومع ذلك يأتي أعمالاً لا يأتيها إلا فرنسي مخلص، الخائن القذر" (14)، كما صورّه الكاتب بالتجرد من المشاعر الإنسانية في مشهد البقرة التي أمر بقتلها.

ومن هنا يوضح السرد مسافة التوتر بين اختلاف الأنا في قيمها وعاداتها وتقاليدها، كما يظهر فحولة وقوة الشعب الجزائري أمام ضعف وهشاشة المحتل، وهذا كله يجعل المتلقي رافضاً الآخر. إن الرؤية السردية للأنا والآخر تتصاعد بتصاعد الأحداث داخل الرواية، والشخصيات تنمو بنمو الأحداث وتتابعها، لتعبر عن عمق المعاناة الإنسانية في هذه الفترة، ورؤية السارد كانت رؤية من الخلف، فالراوي يعرف أكثر من الشخصيات ولذا أكثر السرد الوصفي، كما أكثر أيضاً المنولوج الداخلي للشخصيات التي تدل على الوعي الذاتي، والرؤية الداخلية والرؤية الخارجية عند تودوروف تقابلاً لأسلوب السرد الذاتي، والموضوعي عند توماشفسكي (15)، ولكل رؤية استخدام لضمائر الأنا أو الهو حسب اتساق الراوي مع الشخصية.

تمثيلات الرؤية الأيديولوجية للأنا والآخر في (هايبيل):

إذا كان الطاهر وطار في روايته (اللاز) يمثل المذهب الاشتراكي الواقعي، فإن محمد ديب في روايته (هايبيل) يمثل المذهب الرمزي، وتعبر روايته عن مرحلة جديدة للمثاقفة عاشها الشعب في هذه الفترة، ولم يكن اختيار الكاتب لاسم البطل إلا تجسيداً لهذا المذهب —(هايبيل) رمزية ذات أبعاد دلالية في التراث الإنساني، فهي تعود إلى الجذور الأولى للإنسانية وصراع الأخوة على البقاء والسلطة والنساء، وهذا ما حدث في القصة إذ ترك البطل (هايبيل) وطنه الجزائر لينتقل إلى وطن غريب عنه. يمثل (ديب) حالة فريدة في البنية اللغوية للرواية الجزائرية فهو "يعد من أبرز كتاب الفرنكفونية بالمغرب العربي، كما يصنف في طليعة جيل استطاع أن يتحدى الاستعمار الفرنسي عبر لغته نفسها، وأن يكتب أدباً جديداً فرنسي اللغة، جزائري الروح والانشغالات والهموم" (16)، وقد صور الكاتب شخصياته الدالة على (الأنا) في أربعة نماذج:

قايين

هايل

عتيقة

ليلي

1-الأنا المغترب: يمثل (هايل) بطل القصة الذات المضمرة (الكاتب)، كما تمثل الرواية

التغير البنائي للفرد والمجتمع، فـ(هايل) يقع تحت ضغط أخيه الأكبر، حتى يسافر إلى (باريس) هاربًا من ضغوطاته ومستجيبًا من ناحية أخرى لتوجيهاته، حين يقول له: "لقد حلت ساعة رحيلك... اذهب اكتشف مدناً، تعلم كيف تتعرف على البلدان... لا تستجب لرغبتنا في الاحتفاظ بك بالقرب منا، خالفنا وارحل، اجعل من حياتك شيئاً يشبهك"⁽¹⁷⁾، فالصراع هنا بين البقاء والسفر إلى بلاد بعيدة وحيداً يغترب فيها ويشعر بالعزلة التامة عن وطنه، وهويته، ومجتمعه بعاداته وتقاليده، ويترك وراءه ذكرياته وطموحه وآماله؛ كل ذلك يعبر عن القلق النفسي والاضطراب الذي يصيب الشخصية، وهي ليست معاناة فردية يمثلها البطل المتجسد في شخصية (هايل) إنها معاناة كل مغترب عربي عن وطنه وصدامه مع مجتمع جديد متمايز عن مجتمعه حضارياً وثقافياً، ومختلف في عاداته وتقاليده وركائزه المجتمعية "أصبح هايل في البعد البعيد داخل مدينة كبيرة كأنها الكوكب، مظلمة، ثؤورة كزوجة أب شريرة وغضوبة مثلها"⁽¹⁸⁾، فالمجتمع الرأسمالي (الوحش) مجتمع لا يرحم غريباً أو مقيماً، ينفصل فيه البطل عن مجتمعه الذي تنكر لمبادئه التي ناضل المجتمع من قبل لتحقيقها، لكنه يحاول استرجاع هويته شيئاً فشيئاً، حتى يعود إلى هويته الأصلية متمسكاً بها، ولا ينكر هوية الآخرين، بل يظل الاختلاف ميزة حسنة، فـ(هايل) نموذج لفئة كبيرة من الشباب في الوطن بعد الاستقلال عانت من الغربة المتعددة داخل الوطن، غربة القيم، والثقافة، والرؤى، والأفكار، بينما هاجر الكثير منهم إلى المجتمع الجديد، فمنهم من اندمج بسهولة، ومنهم من عانى من الصراعات النفسية المتعددة، فهو رمزية للعديد من شباب الوطن الراض للتبعية الأيديولوجية والحضارية والثقافية للمستعمر بعد جلائه، وصراع البطل انعكاس لصراع الكاتب نفسه في غربته.

أما (قايين) فهو رمز الوطن في مرحلة ما بعد الثورة وظهور البرجوازية، و(عتيقة) زوجته رمز لمساندة السلطة الأخوية، ورمزية الطبقة البرجوازية التي تسعى لتحقيق أحلامها، ففي حوار مع أخيه: "لم تبرح عتيقة فكره طوال مدة الحوار، ولم تبرح فكر زوجها أيضاً، فهي التي تشغل حديثه

دومًا⁽¹⁹⁾، أما (ليلي) حبيبة هابيل فهي رمزية الوطن الأصل الذي يعيش في قلب هابيل، وشوقه للوطن، هي الجذور التي يتعلق بها وتجذبه إلى الوطن.

-الآخر الحبيب والمرفوض: يمثل الآخر عند الأنا/هابيل شخصية (صابين) الفتاة الفرنسية

التي تمثل نضج النساء الفرنسيات وتميل بجمالتها إلى النساء الشرقيات، وهو ما جذبه إليها، تنجذب إليه وتحبّه فهما متقاربان في العمر (هابيل) في مقتبل العشرين من عمره، وهي في الثامنة عشرة من عمرها مكتملة الأنوثة والنضج، وفيّة لحيه، تشد من أزره وتحاول التخفيف عنه في غربته، "يعيشان منذ أول يوم هو وصابين، يجبان بعضهما البعض"⁽²⁰⁾، فهي تمثل الحياة الجديدة والانفتاح على القيم المجتمعية لمجتمع الغربة، يقيم معها علاقة تبادلية تدفعه إليها الرغبة، يرى العالم كله بصورة موحشة إلا (صابين)، تتميز عن هذا العالم الضاغط عليه بقسوته بأنها أقل قسوة، أو هي التي في أحضانها ينسى كل الهموم "كل البشر وحوش مقيدة، وحدها صابين أقل قيودًا وأكثر وحشية وجمالًا، إذ لا شيء أجمل من وحش جميل، ولا يوجد حظ أكبر من هذا الذي يجعلنا في حضرة أحدهما"⁽²¹⁾.

أما الآخر المرفوض عند الأنا فهو كل ما يمثله المجتمع الجديد الذي يتصارع معه البطل، فهو ينظر إلى المجتمع الآخر نظرة الرافض له، ويرى كل من يأتي إلى هذه الأرض الغريبة ضائع مثله: "شباب من دون أحلام في رفضهم، في زهدهم، في حقدهم على كل سلطة، جالوا العالم، إحدى هذه النقاط الخاصة التي آثروها عن كل الباقي من العالم المتحرك والذي لا فائدة منه"⁽²²⁾. وعبر السرد يلمس المتلقي اغتراب الإنسان الجزائري/الأنا عن ذاته، وبجته الدؤوب عن تلك الذات بالمقارنة مع الآخر، إن الآخر الذي يمثله (باريس) تضع أمامها الهوية الحضارية التي يصطدم بها، وغياب القيم، والهوية المترددة بين الحقيقة والخيال، ولكن النصّ يحتاج إلى قراءة أعمق فهو يحمل بداخله أنساقًا مضمرة تضاد الأنساق الظاهرة التي تظهر في السرد، إن هابيل رؤية سرّالية تسعى لتحقيق انعتاق الأنا وتحريره من الجمود والتعصب التي اكتسبها من القيم المجتمعية والثقافية، فهي ممثلة للمفارقة بين مجتمعين.

تمثلات الرؤية الأيديولوجية للأنا والآخر في (لا أحب الشمس في باريس):

هذه الرواية بداية من العنوان تعلن عن رفض الآخر من خلال إعلانه بغض الشمس في مكان خاص بالآخر، والصراع في الرواية بين الأنا والآخر صراع ثقافي وحضاري وعقدي، وهذا

الصراع يمثل المرحلة الانتقالية التي عاشها الشعب الجزائري في تلك الفترة التي ظهر فيها صراع الحضارات والثقافة، والشخصيات التي في قصته هي انعكاس لأيدولوجية الكاتب وموقفه من هذا الصراع والذي صاغه في شكل عمل فني يتمتع بالجمال الفني والديمومة. فالكاتب يصور الصراع الدائر على الهوية الدينية والثقافية والاجتماعية التي يشعر بها المغتربون في فرنسا ويحاولون جاهدين التمسك بها خلال حفل حضره (رشيد)، ويدور الحوار هناك حول الهوية: "إني سمعت أحدهم واسمه عبد اللاي يقول في رنة تعسة لم أجد لها داعياً: إن تصارعنا مستمر، فإن ثبتنا ظللنا متشبثين بأصالتنا وعاداتنا.. وإن رجفنا يميناً وشمالاً فقدنا كل مقوم من مقوماتنا.. ذبنا ذوباناً.. ليتنا سننصهر كلاً في هؤلاء بقدر ما ينصهرون فينا، أخشى أن يكون الانصهار من جانب واحد.. منا فقط... -إنهم يريدون أن نندمج فيهم بأجسادنا دون أرواحنا.. بأشكالنا وألواننا دون معالمنا الثقافية والحضارية..."

-إن الواحد منا حين يتجنس لا يشترط فيه مقابل ذلك أن يتجرد مما هو فيه من طبائع، أو مما هو عليه من عقيدة دينية أو حتى أسطورية... (23).
وتتعدد دوال الآخر في الرواية، أما الأنا فيمثلها كل من:

الأنا الطموح	الأنا المتأقلم	الأنا المثقف الواعي
سي حميد	صالح	رشيد

فشخصية (سي حميد) شخصية نامية متطورة، تتغير على امتداد الرواية نحو هدف واحد مُعلن هو البحث عن المال للرفاهية، وتفاجئ المتلقي في النهاية بمواقف عكسية، وتقدم هذه الشخصية دفعة واحدة بطريق الوصف المباشر على لسان البطل (رشيد)، فقد كان منذ ثلاثين سنة (كتابي)، ثم اشتغل بالأعمال الإدارية من نقل بضائع هشة، أو ضبط أثمنة على موازين، ولما التحق بالخدمة العسكرية تم تسريحه منها لضعف بصره، فهاجر إلى فرنسا حيث بعض أقاربه الذين ذللوا له الصعاب، ولكنه لم يستقر في عمل، ولجأ إلى الأعمال الحشنة التي تتناسب وميوله العضلية القوية، فعمل في سكة المترو، وهو عمل جد خطير، ولكنه شخصية طموحة "فلم تستطع (القرعة) ولا الحسنة كلتاها أن تصرفه عن طموحه، فالحياة يمثّلها دائماً بأنها جداول، أو خانات ينبغي وضع كل شكل في مكانه، وإلا أضحى هذا النظام فاسداً من أساسه، ويجب إهماله أو معاودته، أو تبديله.

هذا الاعتقاد الذي يدركه سي حميد صار محط إعجاب وتقدير وتأثير⁽²⁴⁾. يتميز (سي حميد) بارتباطه بعمله وإخلاصه له "إلى حدّ الوهّان أحياناً، لا لم يغدق عليه من أموال، أو يوفر له من امتيازات معنوية نهاراً؛ ولكن لصفة راسخة فيه... لم يتصل بشغله قط متخلّفاً، ولا غادره متقدّماً بصورة إرادية..."⁽²⁵⁾، وهكذا حتى أصيب من هذا العمل بصعقة كهربائية ألزمته على أثرها التقاعد من هذا العمل، ليفتتح مطعمًا.

وهكذا نجد الأنا تتطور نحو هدف واحد، ولذا نراه يفتتح عالم التجارة، لكن المفاجأة التي يلقيها المتلقي أن هذه الشخصية تحافظ على وطنها وتحميه بشدة، يتجلى ذلك في أنه "لا يزال يرفض رفضاً قاطعاً بيع الفرنك بأضعاف مضاعفة من الدنانير..."⁽²⁶⁾، ويقرع الشمسين الأرستقراطيين على ذلك، ويبحث غيرهم على الامتناع من عن بيع الفرنكات.

أما شخصية (صالح) فهي من الشخصيات الثانوية في القصة المساعدة للبطل، شاب في الثلاثينات من عمره، يهوى العمل الشاق "لم يرهقني أي عمل في حياتي، فأنا قد اعتورت أشق الأعمال ولم أبال بها، فأنا فتى كما ترى، ما فتئت شاباً جلدًا لم أسلخ الثلاثين، لا تريحني إلا الأعمال الخشنة القوية"⁽²⁷⁾، يظل ينصح البطل (رشيد) بلطف حتى يقتنع بالتغيير والتخلص من عاداته القديمة والإقبال على عادات المجتمع الجديد والاندماج فيه، يعمل مع سي حميد في مطعم وبقيما سويًا في البركة، لكنهما يختلفان عن قاطنيتها بالابتعاد عن البخل والتقتير، ويرتقي مع زميله في العمل حتى يصبح شريكًا له في (مطقه)، وهو شخصية ثابتة متزنة يندمج مع المجتمع ولا يشعر بالغرابة فيه. أما (رشيد) فمن خلال شخصيته عبر السرد يتجسد الصراع بين الـ(نحن) والآخر، ممثلًا في العادات والتقاليد، والصراع الاقتصادي، والثوابت الدينية، والحضارة، والثقافة، فيأتي الصراع الاقتصادي بين المجتمعين في مواطن عديدة من السرد، فمن خلال الحوار الدائر بين الشخصيات يتمثل الصراع في قوله: "انظر إلى أوروبا الغربية كيف بدأت تتكتل اقتصاديًا، ضحت بسياساتها وتجاوزت عن عصبية سياستها الضيقة، وبنّت مجتمعًا اقتصاديًا مزدهرًا"⁽²⁸⁾، وفي قوله: "إن مجمل ما في أسواقهم من خضرة نادرة، وفواكه لذيذة؛ مستوردة من قارتي أفريقيا وآسيا، وحتى أمريكا اللاتينية"⁽²⁹⁾.

أما الصراع الحضاري فيتجلى في انبهار رشيد بالجانب التقني الذي جعل الحياة أسهل في هذا البلد ينعم أهلها بالرفاهية والراحة، فيقارن بين كسب المال هنا وكسبه في بلاده، أو الرفاهية التي تتمتع بها النساء هنا وما كانت تقاسيه أمه (عائشة) من ضيق العيش والكد طيلة اليوم في إصلاح شؤون المنزل، كذلك ما يأتي في السرد من الحديث عن محطات القطار الكبرى والصغرى والمغاور المقام بعضها تحت بعض يربطها مدارج أسمنتية، وأخرى كهربائية⁽³⁰⁾، هذه المفارقات توضح الفجوة الزمنية بين التخلف الحضاري والتقني لمجتمع الأنا والتقدم التكنولوجي لمجتمع الآخر.

ويتجلى الصراع السياسي من خلال الحديث عن فوضوية الأحزاب السياسية ورجعيتها التي لا تصب إلا في مصلحة المستعمر، بينما الأحزاب عندهم تعمل لصالح المواطن المحلي.

ويتعدد الآخر بالنسبة للأنا فالآخر لم يعد الغربي/الفرنسي وحده، بل صار هناك الأفارقة والذين يطلق عليهم الكاتب (الشمسين)، والجدل بين الأنا وبين الآخر يظهر في الصراع الديني حيث يعلن الكاتب أن الأفارقة أكثر تمسكاً بدينهم من المغاربة، وأنهم يقطنون في تكتلات سكنية تمكن النساء من ارتداء الزي المحلي دون أن يتعرض لهم أحد، وحين يرون عبارة (اللحم الحلال) على مطعم سي حميد يندفعون للشراء منه، لكنهم في المقابل لا يتورعون عن بيع عملتهم مقابل الفرنك، كما أنهم يتسمون بالبخل والتقتير على أنفسهم، وينجبون أطفالاً كثيرة مما يسبب عبئاً على الحكومة المحلية.

الخاتمة:

أولاً: النتائج:

من خلال ما سبق يتضح لنا أن الرواية الجزائرية في بداية نشأتها ارتبطت بالأيديولوجية الاشتراكية كروية نقدية معبرة عن القضايا السياسية والاجتماعية والإنسانية للوطن، ثم تحولت بعد ذلك للتعبير عن الرؤية الأيديولوجية للكاتب نفسه مما يؤكد انخراط الرواية الجزائرية في الممارسات الروائية الحديثة واستخدام التقنيات السردية لصياغة الأحداث.

طرحت هذه الروايات قضايا عديدة أبرزها جدلية الصراعات المتنوعة بين الأنا والآخر، وهوية الأنا في حدود العداء، أو الرفض، أو القبول بتحفظ، أو الذوبان في هوية الآخر.

تميزت الرؤية السردية عند الطاهر وطار بالرؤية من الخلف حيث الراوي يعلم أكثر من الشخصية، وكانت الشخصيات أقرب للواقعية، وأظهرت الرواية منطقة جغرافية محددة تتميز بالنضال ضد المستعمر، فكانت مادة خصبة لبناء شخصياته التي أبرز من خلالها العلاقة بين الأنا والآخر، لكنه أخفق في رسم شخصية اللاز بطل الرواية وجعله بهذه الصورة التي أشار الكثير من الدارسين إلى أنها ممثلة للشعب، وأرى أن الرواية تحتاج إلى قراءة أعمق لتشكيل حلقة وصل بين الذات المبدعة للعمل والمتلقي، فـ(زيدان) هو الشخصية الثورية الحقيقية المثقفة الحاملة للرؤى الأيديولوجية للكاتب والتي انتهى مصيره بالذبح، وهو رمز لضياح المبادئ التي قام عليها النضال.

أما محمد ديب فقد تميز سرده بالغرائبية والغموض، وكانت روايته باللغة الفرنسية لكنها معبرة عن الأنا الوطنية، فاكتملت الشكل الفني العالمي للرواية واحتفظت بالمضمون الوطني، وقد أغرق في المونولوجات الداخلية للأنا الدالة على تكثيف الشعور بالوحدة جاعلاً منها رسائل رمزية معبرة عن الوطن والغربة، والبحث عن الهوية والذات، متعمقاً في الذات الإنسانية، ومبرزاً المفارقة الأيديولوجية بين مجتمع الأنا والمجتمع الجديد باريس، فاستعمل الشخصيات رمزيات للأنا، والوطن، والآخر، وموقف الأنا من الآخر إما أن يكون علاقة نفعية متبادلة كعلاقة هابيل مع صابن، أو يكون رافضاً له مع التعايش معه.

أما عبد الجليل مرتاض فكان نصُّه السردى أكثر انفتاحاً، وحفلت روايته بتعدد العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر، وصار الآخر متعدد الدوال، وبرز الصراع الثقافي والأيديولوجي والاقتصادي والسياسي بين الـ(نحن) والآخر، وتميزت الرؤية السردية عنده بالرؤية (مع) المتميزة باستخدام جميع الضمائر.

ثانياً: التوصيات:

يوصي البحث بإعادة قراءة هذه النصوص السردية الروائية في ظل نظريات التلقي الحديث للوصول إلى الفجوة التي بين الذات المبدعة والذات المتلقية واستخراج المعنى المختبئ تحت البنية السطحية الظاهرة للروايات.

المراجع والمصادر:

أولاً: المصادر:

- رواية (اللاز) الطاهر وطار، موفم للنشر- الجزائر، 2007م.
- رواية (هاثيل) محمد ديب، ترجمة: أمين الزاوي، المكتبة الوطنية الجزائرية، طبع دار الغرب- وهران، 2006-2007م.
- رواية (لا أحب الشمس في باريس) عبد الجليل مرتاض، دار هومة- الجزائر، 2005م.

ثانيًا: المراجع:

- أبو العينين، فتحي، صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي: تحليل سوسيولوجي لرواية محاولة الخروج، ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط 1، 1999م.
- إسماعيل، عز الدين، الأدب وفنونه- دراسة ونقد، دار الفكر العربي، د. ط.
- بوزردة، مريم، الأنا والآخر في ضوء الكتابات ما بعد الكولونيالية- كتابات محمد ديب الروائية أنموذجًا، مجلة العلوم الإنسانية، مج أ، ع 50، 2018م.
- سليمان، أحمد ياسين، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر، دار الزمان للنشر-سوريا، ط 1، 2009م.
- غنيمي، الورد، الأنا والآخر في السرد الروائي- الرواية الجزائرية بين جدلية القبول والرفض، مجلة النص، مج 9، ع 2، 2023م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط 3، 1414هـ.
- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي: الزمن- السرد- التبئير، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع- بيروت، ط 3، 1997م.
- يوسف، آمنة، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط 2، 2015م.

(¹) غنيمي، الورد، الأنا والآخر في السرد الروائي- الرواية الجزائرية بين جدلية القبول والرفض، ص 214.

- (2) ينظر: أبو العينين، فتحي، صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي، ص 812، وما بعدها.
- (3) سليمان، أحمد ياسين، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر، ص 139.
- (4) السابق، ص 813.
- (5) ينظر: يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي: الزمن - السرد - التبئير، ص 47.
- (6) ابن منظور، لسان العرب (211/3) مادة: سرد.
- (7) إسماعيل، عز الدين، الأدب وفنونه ص 104.
- (8) وطار، الطاهر، اللاز، ص 52، 53.
- (9) اللاز، ص 207.
- (10) اللاز، ص 78، 88.
- (11) اللاز، ص 9.
- (12) اللاز، ص 7.
- (13) اللاز، ص 61.
- (14) اللاز، ص 105.
- (15) ينظر: يوسف، آمنة، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ص 48.
- (16) بوزردة، مريم، الأنا والآخر في ضوء الكتابات ما بعد الكولونيالية، ص 265.
- (17) ديب، محمد، رواية هايبل، ص 93.
- (18) هايبل، ص 96.
- (19) هايبل، ص 94.
- (20) هايبل، ص 154.
- (21) هايبل، ص 51.
- (22) هايبل، ص 61.
- (23) مرتاض، عبد الجليل، لا أحب الشمس في باريس، ص 70، 71.
- (24) لا أحب الشمس في باريس، ص 24.
- (25) لا أحب الشمس في باريس، ص 24.
- (26) لا أحب الشمس في باريس، ص 84.
- (27) لا أحب الشمس في باريس، ص 4، 5.
- (28) لا أحب الشمس في باريس، ص 112.
- (29) لا أحب الشمس في باريس، ص 19.
- (30) ينظر: لا أحب الشمس في باريس، ص 1.